FTDES
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

***

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي **كراسات المنتدى**

***

حقوق التأليف محفوظة للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

الطباعة : المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية- سبتمبر 2020
ISSN : 2724-6833

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرُّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

الإدارة والتحرير:
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية 47 شارع فرحات حشاد، 1001، تونس

المديـر المسؤول:
علاء الطـــالبي

أعضاء لجنة التحرير:
حياة عمامو، صلاح الدين بن فرج، رياض بن خليفة، نزار بن صالح،
ماهر حنين، سفيان جاب الله، مالك كفيف، محمد سليم بن يوسف

التدقيق اللغوي:
وليد فيّـــــالة

صورة الغـــلاف:
حســـام سعـاف

طبـــــــاعة:
الطباعة المتضامنة

المحتوى

سفيان جاب الله

تقديم عام للكُرّاس 07

المحور الأولّ: في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة..... 22

منـــــال دربالي

لمحة تاريخية عن الأوبئة في تونس. 23

حسـام سعّــاف

هوموستازية المُجتمع المختل أو في تضاعف إقصاء الهامش زمن الحدث الوبائي: قراءة أنثروبولوجية. 36

آية بوصحيــح

تعميق اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الفئات المجتمعية في زمن الوباء: (مقاربة قانونية). 49

يوسف موسى

الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية في السياق الوبائي: كيف خاطب الفئات الأكثر تضررا؟.. 60

المحور الثاني: بورتريه الفئات السوسيو-مهنيّة الأكثر تضرُّرًا من الحجر الصحّي..... 76

رضـــا كــارم

النّساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكوريّة الفضاء، والهيمنة المزدوجة. 77

هيثم مدوري

عمّال البناء: الواقع، الحَجْر والإجراءات. قراءة في آثار الجائحة وتفكيك الأزمة. 94

أمل الهـــازل

عاملات النظافة في المُستشفيات زمن الجائحة: الفاعلات في المعركة من أجل الحياة..... 111

منتصر النغموشي

بورتريهات عاملي المقاهي والحانات في زمن الكورونا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية..... 126

فهمـــي البلطـي

طبيب في مواجهة الكوفيد 19: كيف عاش الأطبّاء الموجة الأولى للوباء؟. 145

محمد سليم بن يوسف

أجراء القطاع الخاص والمسألة الاجتماعية في فترة الحجر الصحي: مجالات الفعل الجماعي والتسييس.. 163

المحور الثالث: في رصد تحولّ/تغيّر كميّ ونوعي لظواهر اجتماعيّة إبان الحجر الصحّي 180

خـــالد طبـــابي

ديناميكيات الهجرة غير النظامية في تونس: محاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوباء.... 181

حـــازم شيخاوي

في فهم العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات زمن الكورونا.. 202

أحمد الســـاسي

كيف عاشت الأحياء الشعبيّة جائحة الكوفيد 19؟ الكبّاريّة نموذجا..... 214

المحور الأول:

في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة

الأداء الخطـــابي لرئيس الجمهورية في السيـــــاق الوبـــائي: كيف خاطب الفئـــات الأكثر تضررا؟

يوسف موسى

ملخص

ندرس في هذه الورقة انعكاسات الكورونا على الخطاب السياسي الرسميّ في تونس من خلال تفكيك خطابات رئيس الجمهورية قيس سعيّد ونرصد تفاعله مع هذه الجائحة. ونروم من خلال هذه المقاربة رصد مدى انسجام الأداء الخطابيّ للسلطة الرسميّة مع حقوق المواطنين الاقتصاديّة والاجتماعيّة، خاصة الغذاء والدواء. ثمّ أثره على الفئات الأكثر تضرّرا في هذا السياق الوبائيّ، وموقع هذه الفئات ضمن رؤية مراكز القرار لآليات معالجة هذه الجائحة. وقد خيّرنا أن نتناول بالتفكيك خطاب رئيس الجمهوريّة لما توفرت فيه من مادة قابلة للعرض والتحليل والنقد من جهتي الكمّ والكيف. ويقتضي ذلك النظر في أشكال هذا الأداء الخطابيّ، من الناحية اللسانيّة والتداوليّة.

إنّ تحليل الأداء الخطابيّ لرئيس الجمهوريّة قيس سعيّد حول الكورونا، وسبل التصدّي لها صحّيا واجتماعيّا واقتصاديّا، يكون بتحليل سياقات خطابه ومرتكزاتها ثم النظر في الضمنيّ والمضمر في هذا الخطاب وذلك لا يكون إلاّ بتحليل الاستعارات الناظمة لهذا الأداء الخطابيّ، ومجمل ذلك سيكشف لنا طبيعة المقاربات الاجتماعيّة والسياسيّة التي يتبناها الرئيس.

Abstract

In this paper, we will explore the impacts of Coronavirus crisis on the official political speech in Tunisia through the analysis of the speech of the president Kais Said and the way he dealt with the pandemic. The goal behind choosing this approach is to investigate the extent to which the official speech goes in harmony with the social and economic rights of Tunisian citizens in terms of medication and food. Then, we will explore the impacts of this speech on the most vulnerable people and the attention given by the official government to these social categories in the context of particular circumstances imposed by Covid-19 and to see whether they were considered by the decision-makers as part of special measures and procedures taken. In fact, we opted for the segmentation of the president rhetorical performance as it represents an adequate material to be displayed, analysed, and criticized both qualitatively and quantitative. To do so, the rhetorical performance is to be investigated from linguistic and communicative standpoints. The analysis of the president's rhetorical performance about Coronavirus and the social and economic counter-measures against Covid-19 require the analysis of the context of this speech: its basics, the encoded meaning, the explicit messages and their implications. This can't be achieved unless we analyze the metaphors that conveyed the

meaning intended by this rhetorical performance and that will consequently reveal the nature of social and political approaches adapted by the president Kais Said.

"اللغة طريقة فعالة لتغيير سلوك الآخرين. فبالحديث تستطيع أن تغير فِعل المرء. وهذا ينطوي أحيانًا على نتائج غير لفظية من مثل ما يحدث حينما نطلب من إنسان أن يحرك شيئاً ما أو أن يأتي بشيء ما إلينا. وأحيانًا تكون له نتائج لفظية من مثل ما يحدث حينما نغير ما يجب على أحد الناس أن يقول في شيء من الأشياء[1]".

جين أتشسن، بذور الكلام. 1999

المقدمة:

انتشرت جائحة الكورونا أو كوفيد-19 كما تُعرف عند المختصّين في العلوم الطبيّة، طيلة الأشهر الأربعة السابقة (من بداية فيفري 2020 إلى مطلع جوان 2020) بوتيرة سريعة وقياسية، فألزمت الناس بيوتهم وأُغلقت المطارات وشُلت حركة الاقتصاد العالميّ، وفرضت نفسها موضوعا رئيسا على جميع الصعد، سياسيا واجتماعيّا واقتصاديّا وإعلاميا وثقافيّا. ولا نبالغ إذ نقول إنّ تأثير الكورونا من جهة الحدة والانتشار قد يضاهي تأثير أزمة 1929 الاقتصادية، ويفوق أزمة 2008 الماليّة. ولئن كانت الدراسات الطبّية الجادة قد سعت منذ شهر فيفري 2020 إلى فهم خصائص الجائحة البيولوجية وتأثيراتها الفيزيولوجيّة وسُبل إنتاج أمصال لها، فإن الدراسات التي اهتمت بدراسة تأثيراتها الاقتصادية والاجتماعيّة والسياسية والثقافية على الأفراد والمجتمعات، لم تبدأ إلاّ منذ أواسط شهر أفريل، وبشكل محتشم.

وننظر في هذه الورقة في انعكاسات الكورونا على الخطاب السياسي الرسميّ في تونس من خلال تفكيك خطابات رئيس الجمهورية قيس سعيّد ونرصد تفاعله مع الجائحة. وقد كنّا في البداية نرمي إلى تحليل الخطاب السياسيّ عند أربع جهات رسميّة لها علاقة بإدارة أزمة جائحة الكورونا، وهي رئاسة الجمهوريّة ورئاسة الحكومة ووزارة الصحة ثم رئاسة البرلمان بدرجة أقلّ، لكنّ الحيّز الضيّق لهذه الورقة لا يسمح لنا بتناول مختلف هذه الخطابات بالتوسّع والعمق الضروريّين، فضلا عن الاختلاف الكبير والجذريّ أحيانا بين مختلف هذه الخطابات على مستوى الطبيعة والخلفيات، خيّرنا أن نتناول بالدرس والتفكيك خطاب رئيس الجمهوريّة عن الكورونا لما يتوفّر فيه من مادة قابلة للعرض والتحليل والنقد من جهتي الكمّ والكيف.

هذه الورقة تندرج في إطار كُرّاس جماعي بعنوان "في تدبير أزمة الكوفيد-19: الأداء الحكومي والفئات الأكثر تضرُّرًا" وهو الكرّاس عدد 4 الذّي يصدره المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

[1] جين أتشِسن، بذور الكلام: أصل اللغة وتطورها، ترجمة: وفيق فائق كريشات، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 1999، ص 45

ومن المهمّ أنّ نقيّم في هذه الورقة أداء السلطة في إدارة أزمة الكورونا ليس فقط في الجانب الطبيّ والاستشفائيّ منها، بل في مدى احترام إجراءاتها مع الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة للمواطنين، خاصة في ما يتعلّق بالعلاج من كورونا أو توفير الطعام والقوت اليوميّ للملايين التي ستتوقّف عن العمل بسبب الحجر الصحيّ الإجباريّ وحظر الجولان خاصة من الشريحة الواسعة من العمال العرضيّين في القطاعات الثلاثة، الفلاحة والصناعة والتجارة، أو العمال في القطاع الخاص الذين يتخوّفون من قطع أجورهم، أما موظّفو القطاع العام والوظيفة العموميّة فيبدو أنه لم يكن من المطروح قطع أجورهم. ولكن لابد من التنويه إلى أننا لن ندرس الإجراءات التي اتخذتها الحكومة وأثرها في هذه الحقوق الاجتماعيّة والاقتصاديّة، بل سندرس الخطاب السياسيّ وموقع هذه الحقوق فيه. وندرس نسبة حضوره في الملفوظ السياسيّ لرئيس الجمهوريّة وأشكال هذا الحضور الخطابيّ، هل كان محورا رئيسا أم أنه قضايا هامشيّة. وأما مدى الإجراءات واحترامها الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة للأفراد ومدى تفعيلها على أرض الواقع، فستتمّ معالجتها في ورقات أخرى. فما هي خصائص الخطاب السياسيّ الرسميّ لرئيس الجمهوريّة حول الكورونا؟ وما هي سياقاته وما هي خلفياته الفكريّة وما هي منزلة الاجتماعيّ والاقتصاديّ في هذه الخلفيات؟ وما هي المضمرات في الرسائل السياسيّة التي يوجهها رئيس الجمهوريّة استنادا إلى خطابه الاستعاريّ حول الكورونا؟

المنهج:

تدبير التسمية وصفويّة اللغة: جائحة أم وباء أم فيروس:

تعدّ تسمية الكورونا أوّل المداخل التي تساعدنا في فهم تمثّل رئيس الجمهوريّة لهذه الجائحة، فالمتتبّع لخطاباته منذ انطلاق الأزمة يلاحظ الارتباك والتردّد في تسميتها بالفيروس أو الوباء أو الجائحة أو المرض، ففي خطابه إثر مجلس الأمن القومي المنعقد يوم 20 مارس نجده يفتتح خطابه بالقول "للنظر في هذا الفيروس"[2]، ثم يقول "نحن نخوض مع البشريّة كلها وليس تونس فحسب حربا ضد هذه الجائحة أو ضد هذا الوباء"[3]، ويردف بعد ذلك "نتيجة لتفشّي هذا الوباء أو هذه الجائحة التي تُسمّى، أو أُطلق عليها الكورونا"[4]، أو قوله "حتى نحاصر هذا المرض أو هذه الجائحة"[5]. ونحن حين نشير إلى هذا الارتباك ليست غايتنا نقد التعامل اللسانيّ أو العلميّ غير الدقيق في خطاب أعلى جهة رسميّة في البلاد، بل غايتنا أن نبيّن أن هذا الارتباك في التسمية يعكس قلقا في فهم طبيعة هذا الطارئ الجديد وعجزا عن القبض على الظاهرة وتكميمها.

[2] خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس إثر اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[3] خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس إثر اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[4] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[5] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

وهذا الارتباك حالة عامة داخل تونس وخارجها وسيستمرّ إلى نهاية شهر مارس. وأما بعدها فسيستقر استعمال الجائحة كتسمية للكورونا في خطاب رئيس الجمهوريّة بينما سيرسخ استعمال مصطلح كوفيد-19 عند وزير الصحّة وكل العاملين في القطاع الصحيّ وبعض الصحفيّين، بديلا عن مصطلح الكورونا. ويبدو تخيّر رئيس الجمهوريّة لمصطلح الجائحة منسجما مع إصراره على استعمال العربيّة الفصحى في خطابه، وقد ألمح إلى أن ذلك كان اختيارا واعيا عندما نقد في خطابه أمام سفراء وبعثات الدول العربيّة والإسلاميّة الدبلوماسيّة عجز المثقفين العرب عن إيجاد بدائل معجميّة لمصطلحات وظواهر غربيّة[6].

المدونة:

سننطلق من خطابات رئيس الجمهورية قيس سعيد وكلماته وتعليقاته وحواراته مع الصحافة ومع المواطنين في عديد المناسبات. ولقد اعتمدنا على المادة المتوفّرة في الصفحة الرسميّة لرئاسة الجمهورية التونسيّة في الفايسبوك (**رئاسة الجمهورية التونسية Présidence Tunisie**)[7]، بدأ بكلمته في أول اجتماع لمجلس الأمن القومي يوم 09 مارس 2020، وصولا إلى كلمته بمناسبة عيد الفطر. ولابدّ من التنويه إلى أنّنا لن ندرس الخطاب السياسيّ لرئيس الجمهوريّة بشكل عام بل فقط ما تعلّق منه بالكورونا مباشرة أو بالقضايا التي أُثيرت وكانت لها علاقة مباشرة بالكورونا سواء أكانت صحيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو سياسية أو ديبلوماسيّة أو غيرها. لذلك سعينا إلى تقصّي مداخلات رئيس الجمهوريّة المسجّلة في فيدوهات معروضة في الصفحة الرسمية المذكورة سلفا.

وقد خيّرنا الاقتصار على الفيدوهات كمنطلق للتحليل، وهذا التمشّي المنهجي اقتضاه سببان: الأوّل هو ندرة الكلمات المنشورة كتابة، والثاني -وهو الأساسيّ-، وهو اختيارنا القصديّ للكلمات الحيّة المنقولة صوتا وصورة لأنّها أنسب في نظرنا لتحليل الخطاب السياسيّ انطلاقا من الأسس المنهجيّة التي نتبنّاها عن مفهوم الخطاب، بما هو مفهوم أشمل من مفهوم النصّ، أي الخطاب بوصفه كُلًّا مؤتلفًا تتدخل فيه عناصر أخرى بالإضافة إلى النصّ اللسانيّ، كالبيئة والمكان والزمان والمتلقّي المباشر والمتلقّي غير المباشر وتفاعلات الخطيب أثناء تقديم كلمته بالغضب والمرح والجديّة وباستعمال قسمات الوجه وحركة اليدين ونبرة الصوت وغيرها. وسنستأنس في هذه الورقة ببعض التصوّرات الأساسيّة في نظرية تحليل الخطاب، خاصة تلك المتعلّقة بنظرية الخطاب والسلطة، كما طرحها الفيلسوف الفرنسيّ **ميشال فوكو (Michel Foucault)**، أو تلك المتعلّقة

[6] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم خطاب 17 ماي بمناسبة مائدة إفطار عقدها على شرف سفراء البلدان العربية والإسلامية.

[7] رئاسة الجمهورية التونسيةPrésidence Tunisie ، https://www.facebook.com/Presidence.tn

بتحليل المضمون اللسانيّ للخطاب كما ضبطتها المدرسة الفرنسيّة لتحليل الخطاب[8]. وسنحاول فيما يلي بسط تصوّرنا لتحليل الخطاب الذي سنلتزم به في هذه الورقة.

خطابات رئيس الجمهوريّة منذ بداية أزمة كورونا 9 مارس 2020 إلى عيد الفطر 23 ماي 2020.

1. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 09 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.
2. خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 18 مارس إلى الشعب التونسيّ يقدّم فيه التدابير الاستثنائية لمنع تفشي فيروس كورونا.
3. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.
4. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس إثر انعقاد مجلس الأمن القوميّ.
5. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 23 مارس في مركز البريد.
6. بلاغ رئيس الجمهوريّة يوم 23 مارس نشر القوات المسلحة للحفاظ على الأمن العام ومراقبة الالتزام بالحجر الصحيّ وحظر الجولان.
7. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 28 مارس دعوة لأحرار تونس لتوجيه المعونة الطبية للأشقاء الفلسطينيّين.
8. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.
9. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 31 مارس توضيح حول ما راج عن مصادرة أملاك بعض رجال الأعمال.
10. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 05 بمناسبة نقل المساعدات في ثكنة الحرس الوطني.
11. حوار رئيس الجمهوريّة يوم 16 أفريل مع صاحب وحدة صناعة الملابس الواقية في القيروان.
12. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 17 أفريل في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.
13. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 18 أفريل في الاحتفال بالذكرى 64 لعيد قوات الأمن الداخلي.
14. خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 23 أفريل إلى الشعب التونسيّ بمناسبة دخول شهر رمضان.
15. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 11 ماي أمام الجيش بمناسبة افتتاح المستشفى العسكريّ الميداني في قبلي.
16. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 13 ماي في الإدارة العامة لوحدات التدخّل.
17. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 16 ماي في الأكاديمية العسكرية بفندق الجديد.
18. كلمة رئيس الجمهوريّة يوم خطاب 17 ماي بمناسبة مائدة إفطار عقدها على شرف سفراء البلدان العربية والإسلامية.
19. خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 23 ماي إلى الشعب التونسيّ بمناسبة عيد الفطر.

[8] Maingueneau, Dominique, Les termes clés de l'analyse du discours, Seuil, Paris, 2009, P.19.

تحليل الخطاب

إنّ الحيّز الضيّق لهذه الورقة قد لا يسمح لنا بعرض نظريات تحليل الخطاب عرضا دقيقا، في ظلّ تعدّد مناهجه ومدارسه وتياراته. فمن المعلوم أن أوّل من نحت مصطلح "تحليل الخطاب" هو **زيليغ سابيتاي هاريس (Zellig Sabbetai Harris)** في مقالته المشهورة مطلع الخمسينات في مجلة **"Language"** الأمريكية[9]، رغم أنّ ممارسة تحليل الخطاب تعتبر أسبق من ذلك بزمن طويل، فإنّها لم تتبلور في مناهج ناظمة إلاّ انطلاقا من منتصف القرن العشرين، خاصة مع الممارسة الأمريكية التي استفادت كثيرا من الدراسات الاجتماعيّة والأنثروبولوجيّة واتجهت إلى تحليل المؤثرات الخارجيّة في الخطاب كالخلفيات الاجتماعيّة والموقع الطبقي والتصوّرات الثقافيّة والعادات والتقاليد. أما الممارسة الفرنسيّة لتحليل الخطاب فقد كانت أكثر التصاقا بالبنية الداخليّة للنص معجميا ونحويا وبلاغيّا مدفوعة بازدهار البحث اللسانيّ البنيويّ وكذلك بالنتائج الباهرة في علم النفس البنيويّ[10].

وقد حرص الكثيرون على إعادة النظر في مفهوم الخطاب، لتخليص "تحليل الخطاب" من ربقة الدرس اللغويّ الضيّق الذي حشره فيها البنيويّون بسعيهم لاستبعاد كلّ ما هو فوق النصّ أو خارجه، وخاصة السياقات الاجتماعيّة والنفسيّة والتاريخيّة والثقافيّة الحافّة بعملية القول. ويجدر التنويه أنه لم ينصرم عقد الستينات من القرن العشرين ومع موجة ازدهار الدراسات ما بعد البنيويّة، إلاّ وقد صار من الثابت عند جمهور الدارسين أنّ تحليل الخطاب أشمل من تحليل النصّ وهذا ما اختزله فوركلوف في معجمه حين قال "إنّ تحليل النصّ جزء أساسيّ من تحليل الخطاب، لكنّ تحليل الخطاب لا يقتصر على التحليل اللسانيّ. أرى أنّ تحليل الخطاب يتأرجح بين التركيز على نصوص معيّنة والتركيز على ما أسمّيه نطاق الخطاب، أي البناء الثابت نسبيّا للغة والذي يشكّل مكوّنا في بناء الممارسات الاجتماعيّة والشبكة التي تؤلّفها، الثابتين نسبيّا"[11]. فيغدو بذلك الخطاب شاملا للنصّ وما يحفّه، كالسياق والبيئة والزمان والمكان وكل ما هو فوق لساني[12].

وبقدر ما سنحاول في هذه الورقة الاستفادة من التحليل السيميائيّ للخطاب السياسيّ من خلال تعقّب الجهاز المعجميّ والدلاليّ والبلاغي الناظم لخطاب رئيس الجمهوريّة قيس سعيّد، **وخاصة الثابت المعجمي المتكرّر** الذي يستعمله في خطابه عادة، فإنّنا نلمع إلى أنّنا سنحاول -على قدر العلم والجهد- توظيف مختلف مناهج تحليل الخطاب بقدر ما يسمح به الانسجام المنهجيّ للتحليل، وسنركّز أساسا على المقاربة الأركيولوجيّة في تحليل الخطاب كما صاغها **ميشال فوكو** في

[9] كليب، (سامي)، البراغماتيّة {القولفعليّة} في تحليل أفعال الخطاب السياسيّ، ط.1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2018، ص، 29.

[10] كليب، (سامي)، المرجع نفسه، ص، 52.

[11] فاركلوف، (نورمان)، تحليل الخطاب: التحليل النصّي في البحث الاجتماعيّ، تعريب، طلال وهبة، ط.1، المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت، لبنان، 2009، ص، 21.

[12] فاركلوف، (نورمان)، تحليل الخطاب: التحليل النصّي في البحث الاجتماعيّ، ص، 21

كتابه الشهير **"حفريات المعرفة"**[13]، للوقوف على الخلفيات الفكريّة والاجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة التي تسيّج خطاب رئيس الجمهوريّة قيس سعيّد عن الكورونا.

سياقات الخطاب ومرتكزاته:

سياقات الخطاب:

يقتضي تحليل الخطاب خطوات منهجيّة ضروريّة أوّلية ينطلق منها الباحث مثل ضبط محدّدات الخطاب وسياقات القول. وقد أشرنا سابقا إلى أهميّة اعتماد سياق الخطاب مدخلا أساسيّا لفهم النص. ويرى مانغينو (**Maingueuneau**) أنّ الخطاب "يلعب دورا محوريّا في إنتاج - كما في تفسير- الجملة المنطوقة، وإذا كانت الجملة خارج هذا الإطار العام فلا يكون لها سوى معنى محتمل. وإنّ تحليل الخطاب يقتضي ربط الجمل المنطوقة بسياقها غير الكلاميّ"[14].

ويتمثّل السياق العام لخطاب قيس سعيّد في تداعيات أزمة جائحة الكورونا في تونس على مدى ثلاثة أشهر من مطلع مارس 2020 إلى نهاية ماي من نفس السنة، وقد تزامن ظهور الكورونا مع أزمة تشكيل ما يعرف بـ"حكومة الرئيس" وما رافقها من تجاذبات عنيفة وحادة بين مختلف الفاعلين السياسيّين والاجتماعيّين. فحين أُكتشفت أوّل حالة للكورونا في تونس يوم 2 مارس كان الفرقاء السياسيون في الساحة التونسيّة مازالوا يتبادلون الاتهامات. لذلك لا يستغرب المتلقي إذا وجد في خطاب الرئيس حول الكورونا رسائل مشفرة إلى أنصاره وردودا ضمنيّة على خصومه. وهذا ما سنحاول تفكيكه وتعريته من خلال النظر فيما وراء خطاب الكورونا. وإلى جانب السياق العام ثمة سياقات خصوصيّة ضيّقة تتعلق بمناسبة كل خطاب كاجتماع مجلس الأمن القوميّ أو الاحتفال بعيد قوات الأمن الداخليّ أو التهنئة بعيد الفطر أو غير ذلك.

أسند النظام البرلمانيّ المعدّل القائم في تونس لرئيس الجمهوريّة مجموعة من الصلاحيّات المحدّدة والضيّقة، تنحصر أغلبها في مربّع السياسة الخارجيّة والدفاع، وسنأخذ ذلك في الحسبان أثناء دراستنا لخطاب رئيس الجمهوريّة إبّان أزمة جائحة الكورونا. فسياقات الخطاب تحدّد غايته وتضبط شكله وترسم له ضوابطه المعياريّة. ويتمثّل خطاب سعيّد حول الكورونا في مجموعة من الكلمات والخطابات والتدخلات، نصنفها ثلاثة أصناف حسب سياقاتها:

• الخطاب في السياقات السلطويّة، أمام مجلس الأمن القوميّ وأمام البعثات الدبلوماسيّة وأمام الجيش والحرس وقوات الأمن والشرطة في مناسبات متعدّة. وهو خطاب يكون فيه المتلقي على ضربين حسب السياق: متلق داخليّ في "الميكرو سياق" هو الجمهور الذي يلقي الرئيسُ الخطابَ

[13] كليب، (سامي)، المرجع نفسه، ص، 31.

[14] كليب، (سامي)، المرجع نفسه، ص، 67.

أمامه، ومتلق خارجيّ في "الماكرو سياق"[15] وهو عموم الشعب التونسيّ والرأي العام الداخليّ والخارجيّ المتابع لكلمة الرئيس في نشرات الأخبار أو عبر صفحة رئاسة الجمهوريّة في الفايسبوك أو عبر البوابة الرسميّة لرئاسة الجمهوريّة.

• الكلمات المقتضبة في سياق الحوارات المرتجلة، مثل حوار الرئيس مع صاحب مصنع الكمامات في القيروان، أو كلمته أثناء شحن المساعدات. وهي كذلك ينطبق عليها ما ينطبق على الصنف الأوّل رغم كونها تتميّز بالارتجاليّة والتفاعليّة.

• الخطابات الموجهة إلى الشعب بشكل مباشر وهي كلمة رئيس الجمهوريّة لإعلان التدابير الاستثنائيّة لمواجهة الكورونا، وخطاب التهنئة بمناسبة حلول شهر رمضان وخطاب التهنئة بعيد الفطر. ويكون المتلقيّ فيها هو الشعب برمته، إليه يوجه الرئيس خطابه مباشرة ويكون الخطاب فيها معدّا سلفا.

ويمكن تصنيف خطاب الرئيس حول جائحة الكورونا إلى ثلاثة أصناف أخرى حسب نوع الخطاب ومضمونه:

• خطاب في سياقات أمنية وعسكرية وفي سياق مجلس الأمن القوميّ ويغلب عليها البعد السلطويّ والنبرة الحازمة التي لا تفوّت فرصة للإشادة بالجهود العسكريّة والأمنية في مواجهة الأزمة والتي تظهر فيها نزعة الرئيس إلى تشييد صورة الزعيم الحازم المرابط الحامي للسيادة الوطنية وأمنها القوميّ، الضامن لهيبة الدولة ووحدتها المهددة بالتفكك في ظل النظام السياسي المريض في نظره.

• خطاب في سياقات ديبلوماسيّة مثل الخطاب أمام البعثات الديبلوماسيّة ومثلا البلاغ الصادر عن رئاسة الجمهورية الداعي إلى جمع التبرعات للشعب الفلسطينيّ. وفيها يستهدف الرئيس بناء صورة الزعيم الإقليميّ والأمميّ الساعي لاقتراح حلول عالمية لصد أزمة الكورونا من خلال المساعي الدبلوماسيّة مع الزعماء العرب وغيرهم وفي إطار مجلس الأمن الدوليّ.

• خطاب في سياقات دينية مثل خطاب التهنئة برمضان وخطاب التهنئة بالعيد وفيها يرتفع منسوب النبرة الدينية الوعظية والرمزيّة وفيها يؤكّد سعيّد في كل مرة تأصّله في هويته العربيّة الإسلامية وتماهيه مع الجماهير في خلفياتها العقدية.

هذه النبرات الثلاث في الخطاب قد تتقاطع في الخطاب الواحد، وتتجاور مع نزعة اجتماعيّة بارزة تحتفي بخطاب المظلومية الاجتماعيّة، اعتبرناها مرتكزات إيديولوجيّة موجّهة لخطاب رئيس

[15] كليب، (سامي)، المرجع نفسه، ص، 68.

الجمهوريّة حول الكورونا، وسنحاول فيما يأتي من هذا المقال تفكيكها وبيان صلتها بخطاب أزمة كورونا.

مرتكزات الخطاب:

ونقصد بها الخلفيات الفكرية والقناعات الإيديولوجيّة التي يتأسس عليها خطاب رئيس الجمهوريّة حول الكورونا، والتي تظهر صراحة في ثنايا الملفوظ أو في مضمراته. ولعلّ أهم هذه المرتكزات، قناعات الرئيس ذات الخلفيّة الاجتماعيّة والتي لا يخفيها بل لا يفوّت فرصة إلاّ ويذكّر المتلقي بها، أهمّها حق الفقراء والمسحوقين والعاطلين في الحياة الكريمة وفي العدل، فنجده يذكّر دائما أن إجراءات الحجر الصحيّ في البيوت وحظر الجولان ستأخذ في الاعتبار أوضاع الطبقات الاجتماعيّة التي تحتاج الخروج إلى العمل لتأمين قوت يومها وقد قال في ذلك "كيف سيعيش إليّ عندو صغير وإلي ما عندوش عشاء كيفاش يقعد في الدار"[16].

وما يشد الباحث في هذا القول ليست فقط لغته المنحازة إلى الفقراء في مضمون كلماتها وفي لهجتها الدارجة[17]، بل أيضا أسلوبه الاستفهاميّ الذي يضع القارئ إزاء حيرة فيما إذا كان الخطاب خطاب حكم أم خطاب معارضة؟ فهل الاستفهام يجري على معناه المباشر وفيه يستفسر رئيس الجمهوريّة من وزراء الحكومة والمسؤولين الحاضرين في اجتماع مجلس الأمن القوميّ، عن خطتهم لمواجهة التبعات الاقتصاديّة والاجتماعيّة للجائحة؟ أم أن الاستفهام يخرج إلى معنى الإنكار وفيه يستهدف الرئيس مساءلة الحكومة أمام الرأي العام وأمام الجماهير سيما وأنه يعلم مسبقا أن كلمته ستسجّل وستبثّ في النشرة الرئيسيّة للأخبار، فيصبح بذلك الحاضرون في الاجتماع مجرّد متقبّل مباشر لكنه ثانويّ قياسا إلى المتقبّل غير المباشر الغائب في المكان الحاضر في الخطاب وهو الشعب. ونحن نميل إلى التفسير الثاني، إذ لا نعتقد أن الرئيس يجهل الإجراءات التي تعتزم الحكومة اتخاذها للتخفيف من حدّة التداعيات الاقتصاديّة والاجتماعيّة المترتّبة عن الحجر الصحيّ وعن إيقاف النشاط الاقتصاديّ على الفئات المسحوقة، خاصة وأنّ رئيس الحكومة يستشيره بشكل دوريّ. وبناء على ما سبق فإنّ هذه الاستفهامات مُساءلة سياسيّة وأخلاقيّة من رئيس الجمهوريّة للحكومة، وكأنّنا إزاء نظام رئاسيّ فيه يرسم رئيس البلاد السياسات ويكلف مجلس الوزراء بتنفيذها ثم يحاسبهم على ذلك، في حين أنّ النظام السياسي التونسيّ الحاليّ قد جعل الحكومة مسؤولة أمام البرلمان حصرا، منه تستمد شرعيّتها.

وتعدّ هذه المساءلة في قراءة من القراءات، من رواسب خطاب قيس سعيّد المعارض، الذي لازمه طيلة حملته الانتخابيّة التي قادته إلى رئاسة الجمهوريّة، أو لعلّه خطاب معارضة مقصود -من

[16] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[17] من رئيس عُرف عنه تشبثه بالفصحى في معظم الأحيان حتى صار الأمر محلّ تندّر.

داخل أجهزة الحكم- يؤسس صاحبُه لحملة انتخابيّة مبكّرة تهدف إلى خلق استعداد لدى الجماهير لطرح مشروع استفتاء على تغيير نظام حكم يبدو أن رئيس الجمهوريّة لا يعتقد في جدواه وفاعليّته.

ومن هذا المنطلق نجد رئيس الجمهوريّة في خطابه يرسم للحكومة خطوط سيرها والمحاذير التي يجب أن ينتبه إليها المسؤولون، وأهمّها حليب الأطفال[18] وقوت الفقراء والعمّال العرضيّين والدواء "توفير الحاجيات الضرورية للمحتاجين البؤساء والفقراء والمحرومين الذين لا يستطيعون ملازمة بيوتهم"[19]. ولا يخفي رئيس الجمهوريّة في جل خطاباته انحيازه للفئات الفقيرة ويتعهّد دائما بالعمل على تحقيق مطالبها "سنعمل بكلّ جهدنا وبكلّ ما أوتينا من قوّة للاستجابة لمطالبهم"[20]. بل ويذهب في انحيازه الطبقيّ أبعد من المعهود -على مستوى الخطاب المعلن على الأقلّ- حين يمدح المتطوعين الفقراء الذين يجودون بالقليل[21]، ويهاجم الأثرياء ورجال الأعمال المتهرّبين من دعم جهود الدولة في مواجهة الأزمة، بل وينعت بعض أصحاب رؤوس الأموال الذين يحتكرون الغذاء والدواء بمجرمي الحرب. ويذكّر بأن البلاد لا تشكو قلّة الأموال بل تشكو التوزيع غير العادل لها "هناك أموال كثيرة ولكن هناك توزيع غير عادل لها"[22]. ويذهب بعيدا في مهاجمة رجال الأعمال حين يلمّح إلى أن أموالهم في البنوك، فيُفهم من ذلك أن المضمر في الخطاب هو أن هذه الثروات تحت أنظار الدولة وبإمكانها في أيّ وقت مصادرتها ووضع يدها عليها، وتخيّل هذا السيناريو أثار مخاوف رجال الأعمال ودفعهم لتكثيف ضغطهم عبر مراكز القوى فكان أن أصدرت رئاسة الجمهوريّة بلاغا توضيحيّا يوم 31 مارس 2020 إثر اجتماع مجلس الأمن القوميّ، أوضحت فيها أن لا نيّة للدولة في مصادرة أموال رجال الأعمال[23].

ونلاحظ من خلال المعجم المستعمل في هذا الشاهد تخيّر المتكّلم لعبارات شديدة الوقع على نفسيّة الجماهير المتقبّلة، عبارات لم يعتد التونسيّون سماعها في خطاب رسميّ، بل ظلّت حكرا على رموز المعارضة الاجتماعيّة واليساريّة. فمن عادة المسؤولين تلطيف العبارات وتسمية هذه الفئات بـ"ذوي الدخل المحدود".

إنّ عدم التناسب بين طبيعة الخطاب وموقع صاحبه (خطاب معارض من رئيس جمهوريّة) يدفعنا إلى البحث في تفكيك هذه الإشكاليّة وهنا نجد فرضيتين تفسيريّتين: الأولى أنّ رئيس الجمهوريّة يتبنى خيارا اجتماعيّا جذريّا ويسعى إلى تفعيله ولكن النظام السياسي الحالي لا يعطيه فرصة فوجد أزمة الكورونا سياقا مناسبا لتكثيف نقده للأوضاع الاجتماعيّة المتردّية وتحميل الحكومة ومن ورائها

[18] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[19] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[20] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[21] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[22] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[23] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 31 مارس توضيح حول ما راج عن مصادرة أملاك بعض رجال الأعمال.

الأحزاب والطبقة السياسيّة برمتها مسؤولية ذلك، وذلك ما يعطيه شرعيّة لطرح بدائل أخرى أهمّها تغيير نظام الحكم ومنوال التنمية ومشروع مصالحة جديد. وأمّا الفرضيّة الثانية فهي أن نقد الرئيس لأداء الحكومة والمجتمع السياسيّ يدخل في سياق لعبة الشرطيّ الخيّر والشرطيّ الشرير، وفيها تمثّل رئاسة الجمهوريّة بما تحمله من رمزيّة دور الشرطيّ الخيّر وصوت الجماهير لتخفيف احتقان الشعب ودفعه إلى الانضباط لتوجيهات الرئيس إلى وجوب الالتزام بالحجر الصحيّ وحظر الجولان. وكأننا بالحكومة الجديدة المولودة في ظروف سياسيّة صعبة وقلاقل برلمانية وتجاذبات عنيفة بين الكتل البرلمانية المشكّلة للائتلاف الحكوميّ فيما بينها، تريد الاستثمار في الكاريزما الناشئة لرئيس الجمهوريّة من أجل إقناع الشعب بالإجراءات الصارمة في ظروف اقتصادية واجتماعيّة محتدمة، وما كان ذلك ليتحقّق إلا بالتنفيس الخطابي وبمغازلة الجماهير عبر خطاب ينتصر لهموم الفقراء.

لكن الإشكال الأكبر هو وعي الرئيس أنّ هذا الخطاب الاجتماعيّ الحماسيّ في غياب القرارات وأدوات السلطة يبقى مجرّد إنشاء خطابي. وهذا مأزق سيحاول تجاوزه عبر ما وفّر له النظام السياسيّ من آليات وهي السياسة الخارجيّة والدفاع والأمن. مع هامش الحركة الجيّد نسبيّا الذي تتيحه فكرة "حكومة الرئيس".

ولا يكفي فهم السياقات الحافة بخطاب الرئيس أو خلفيّاته أو مرتكزاته الاجتماعيّة الموجّهة له، بل لا بدّ من تفكيك المرجعيات التي تسيّجه بتحليل الاستعارات الناظمة لسيرورته الداخليّة. وسنركّز في عملنا على ثلاث استعارات مهيمنة، الأولى هي الاستعارة الرعويّة كما صاغها ميشال فوكو، التي تستحضر علاقة الراعي بالرعيّة بكلّ ما تتأسس من تصوّرات، والثانية هي الاستعارة الطبيّة والثالثة هي الاستعارة العسكريّة.

الاستعارات الناظمة لخطاب رئيس الجمهورية حول جائحة كورونا:

الاستعارة الرعوية:

يعتبر ميشال فوكو صاحب الفضل في نحت مفهوم الاستعارة الرعويّة أو استعارة الراعي والرعيّة، ويقصد بها أحد أشكال السلطة في المجتمعات القديمة وخاصة الشرقيّة منها. ويقوم هذا التصوّر للسلطة على اعتبار الحاكم راعيا والشعب رعيّة، ومن ثمة يترتّب على الراعي قيادة قطيعه نحو المرعى والسهر على سقيه وإطعامه وحمايته وتأمينه في الزريبة، وعلى الرعيّة أو القطيع طاعة الراعي. ويستخدم الراعي أدوات متنوّعة مثل العصا (عنف الدولة) والمزمار (الجهاز الإيديولوجي). وقد نشأت هذه الاستعارة في الحضارة الفرعونيّة، ثم تسرّبت إلى اليهوديّة فتجلت في التوراة التي صوّرت يهوه بمثابة الراعي لشعبه، وصوّرت بعض الأنبياء في صورة الرعاة الذين يقودون الشعب اليهوديّ وهذا ما نجده في صورة داود وصورة موسى. وتتجلّى هذه الاستعارة بوضوح في الإرث السياسيّ

العربيّ الإسلاميّ الذي تأسس على المقولة الشهيرة "كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته"، بل مصطلح الراعي والرعيّة مصطلحان دارجان بكثافة في الآداب السلطانيّة.

إنّ فوكو حين استفاض في شرح مقولة الراعي والرعيّة[24] لم يكن يهدف إلى دراسة أنماط الهيمنة في الخطاب السياسيّ القديم، بل كان يسعى إلى الحفر في طبقات خطاب السلطة والهيمنة في الثقافة الغربيّة الحديثة والمعاصرة فقاده بحثه إلى النبش في رواسب أنماط السلطة الكلاسيكيّة والتي تسرّبت إلى اللاوعي السياسيّ الغربيّ المعاصر رغم احتكامه لعلاقات هيمنة حديثة ومختلفة مثل المواطنة والاستغلال الطبقي والعقد الاجتماعيّ واحتكار العنف وغيرها.

وفي هذا السياق تعقّب الاستعارة الرعويّة في خطاب رئيس الجمهوريّة حول الكورونا، مذكّرين بخلفيّته القانونيّة التي تقتضي منه ضرورة انتقاء معجم قانونيّ يتمحور حول مقولة المواطنة وحقوق الإنسان والدولة والفرد والتعاقد وغيرها. فبرغم حرص الرئيس على التأكيد على المقاربة القانونيّة، إلاّ أن صورة الأمير العادل والراعيّ الحكيم الورع التي ترسّخت في المخيال العربيّ الإسلاميّ، والتي تجد تكثيفها الأبرز في صورة الخليفة عمر بن الخطّاب تبرز في كلّ مرة يتحدّث فيها الرئيس عن الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة للشعب.

وتحضر صورة الراعي الملهم بوضوح، عند ذكر عمر بن الخطاب مرّتين: الأولى في حادثة تحميل المساعدات عندما همّ أحد أعوان الحرس بحمل صندوق المساعدة عن الرئيس إلى طائرة الشحن، فسرد عليه حادثة عمر بن الخطاب وأحد عمال بيت المال "حينما كان [عمر بن الخطّاب] بالليل يتفقد أمر الرعيّة واستمع إلى امرأة تشتكي إلى ربّها وتقول: تولّى أمرنا وأهملنا، فعاد إلى بيت مال المسلمين وأخذ جزءا من القمح، ومصاحبا بأحد الأعوان، فقال له مَن كان معه: أأحملها عليك أم أحملها عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: احملها عليّ. فقال أحملها عنك أم أحملها عليك يا أمير المؤمنين؟ قال ويحك أستحملها عنّي يوم القيامة؟"[25].

ويكشف لنا هذا الشّاهد المرجعيّات الأخلاقيّة والحضاريّة التي ينطلق منها الرئيس في تمثّل صورة الحاكم المثاليّ والراعي المسؤول عن رعيّته في قوتها والمسؤول عنها أمام ربّه. فكأنّنا بقيس سعيّد يسعى جاهدا إلى ترسيخ صورة الحاكم المتواضع في أذهان الجماهير، تلك الصورة التي احتفت بها متون التراث العربيّ الإسلاميّ بصفتها صورة منشودة تجد تمثيلها في الخلفاء الراشدين وفي عمر بن عبد العزيز، على عكس صورة أخرى مستهجنة كرّسها خلفاء بني أميّة وبني العباسّ الذين كانت تحجبهم عن الرعيّة جحافلُ الجند والعسس والحجّاب وأبواب القصور.

[24] Michel Foucault, «Omnes et singulatim: Vers une critique de la raison politique», Le Débat 1986/4 (n° 41), p. 5-36. https://www.cairn.info/revue-le-debat-1986-4-page-5.htm

[25] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 05 بمناسبة شحن المساعدات إلى مستحقّيها في ثكنة الحرس الوطني.

وأمّا الحادثة الثانيّة التي يستحضر فيها الرئيس صورة عمر بن الخطاب بشكل صريح فهي حين قال "يوم أمس قمت بزيارة في الليل لأنّي لا أريد أن يراني أحد في الواقع إلى ولاية القيروان إلى العلا أسوة بالفاروق عمر بن الخطّاب حتى لا يراني أحد"[26]. إذن هو رئيس جمهوريّة بهيأة راع عادل يتجوّل بالليل متفقّدا أحوال الرعيّة مستمعا إلى شكواها. وقد فُهمت هذه التصريحات حينها على أنّها ضرب من ضروب الشعبويّة المفضوحة، ولعلّها تكون كذلك، ولكن من الإنصاف أن نقول أنّ الرجل يبدو أنه يؤمن حقّا باتباع هذا النموذج وهذا المنول السياسيّ، وأنه منسجم مع قناعاته أكثر مما هو بصدد ممارسة المخاتلة الخطابيّة.

وبالنظر إلى مجمل الاستعارات الرعويّة الواردة في خطاب الرئيس عن الكورونا نجده متخما بالإحالات الدينيّة التي ترد بصيغ شتّى إما استشهادا بآيات وأحاديث أو بتضمين المعجم القرآنيّ في الخطاب أو باستعارة الخطاب القرآنيّ بطريقة تذهب بالاستعارة الرعويّة إلى أبعد مدى، حين قال مبرّرا إجراءات الحجر الصحيّ ومطمئنا الشعب على قوته وأمنه "هذه الإجراءات هي لتأمينكم من كلّ خوف ومن كلّ جوع"[27]. وفي هذا القول ينتقل صاحب الخطاب من مرتبة محاكاة السلف والمنوال التليد إلى مرتبة محاكاة سلطة الإله حين يستحوذ على العبارة القرآنيّة الواردة في سورة قريش "الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف"[28]. ونحن وإن كنّا لا نشكّ في أن رئيس الجمهوريّة لا يقصد مماثلة نفسه بالإله وأن العبارة تجد تبريرها في الرغبة المحمومة في تحقيق مطلب الفصاحة، والبحث عن أقصى درجات التأثير في المتقبّلين، إلاّ أنّنا نلمع إلى أن وضع الحاكم لنفسه في مرتبة الإله مسؤولا عن إطعام شعبه ليست سابقة في الإرث الخطابيّ العربيّ الإسلاميّ، بل نعثر عليها عند زياد بن أبيه في خطبته البراء، أو عند أبي جعفر المنصور.

ويحرص رئيس الجمهوريّة على تأصيل خطابه عن الكورونا في الموروث الدينيّ الإسلاميّ دائما، فالتباعد الاجتماعيّ والالتزام بالحجر الصحيّ يدخلان في باب حفظ الأنفس وهو مقصد كبير من مقاصد الشارع عند المسلمين "هذه الإجراءات ثقيلة ولكنّ الحفاظ على الأنفس وعلى الصحّة هما من مقاصد الشريعة، والعادات والتقاليد لا يمكن أن تغلب على مقاصد العبادات وأهدافها، قال جلّ من قائل: ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيم"[29].

ويبدو توظيف هذه الترسانة من الحجج والمأثورات الدينية مفهوما في سياق محاولة إقناع أفراد من الشعب بملازمة بيوتهم وإلزامهم بذلك. وهو إجراء عسير التطبيق وقد احتاجت دول عدة إلى تنفيذه بقوة العنف المادي لأجهزتها الأمنيّة كما في الهند.

---

[26] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 17 أفريل في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[27] خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس إثر اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[28] القرآن الكريم، سورة الإيلاف.

[29] خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 23 أفريل إلى الشعب التونسيّ بمناسبة دخول شهر رمضان.

الاستعارة الطبيّة:

في هذا المستوى من التحليل نظرنا في خطاب رئيس الجمهوريّة عن الجائحة فلم نجد له مواقف أو آراء ذات مضمون طبيّ مباشر، إلاّ قولة وحيدة بسيطة دعا فيها الشعب إلى عدم تصديق بعض الذين يبثون خطابا تشاؤميّا[30]، والاكتفاء بأخذ المعلومة الدقيقة عن الجائحة "لا تستمعوا إلاّ إلى المختصّين الصادقين"[31]. لذلك لن نبحث في المقاربة الطبّية التي يتبناها قيس سعيّد في مواجهة الكورونا، بل سندرس التوظيف السياسيّ للخطاب الطبيّ. فقد حوّل رئيس الجمهوريّة الكورونا إلى استعارة سياسيّة يوظّفها في توصيف خصومه السياسيّين في تونس. فهم تارة جوائح يتعهّد بمحاربتها "سننطلق بعد أن تمت محاصرة هذه الجائحة لمحاصرة كل الجوائح الأخرى الطبيعيّة والمفتعلة"[32]. ويَعدُ بالانتصار على الكورونا وعلى خصومه السياسيين "صبرا جميلا وسننتصر إن شاء الله على هذه الجائحة وعلى الجوائح كلّها بما في ذلك الجوائح السياسيّة"[33]. وطورا يصنّف أفكار خصومه ومعارضيه بأنّها جوائح تصيب العقول "أخطر أنواع الجوائح هي التي تصيب الأفكار والعقول قبل أن تصيب سائر أطراف الجسد"[34].

ويبدو أنّ رئيس الجمهوريّة استشعر رغبة بعض القوى السياسيّة في الحد من سلطاته وتحركاته وخاصة نقده للنظام السياسيّ القائم وخاصة الأحزاب السياسيّة، لذلك نجده يتخذ الكمامات مدخلا استعاريّا لكيّ يردّ بعنف خطابيّ على الذين يعتقد في أنّهم يستهدفون إخماد صوته "قد توضع الكمامات خوفا من العدوى ولكن أخطر أنواع الكمامات هي التي توضع في الشرعيات المزعومة لاعتقال الفكر وأسر العقل"[35].

الاستعارة العسكرية:

ذكرنا في بداية هذه الورقة أن تدبير رئيس الجمهوريّة لجائحة كورونا لا يخرج عن فهمه للسلطة وعن تمثّله لعلاقاتها، وقد ذكرنا ولع الرئيس صورة الزعيم الحازم المرابط في الدفاع عن وحدة البلد وسلامته، ولا يخفي خطابه إعجابه بالمصطلحات السلطويّة التي تحيل على شكلّ مخصوص من أشكال السلطة، ذاك الذي يعلي من قيمة الدور العسكريّ في تحقيق الوحدة والانضباط. وهذا المنحى في التحليل لا يبرز فقط في خطابات الرئيس في سياقات أمنية وعسكرية وفي سياق مجلس الأمن القوميّ، أين لا يفوّت فرصة للإشادة بالجهود العسكريّة والأمنية في مواجهة

[30] إشارة إلى الطبيب الذي صرّح في احدى القنوات الفضائيّة أنّه يتوقع وصول عدد المصابين في تونس إلى 300 ألف بحلول نهاية أفريل.

[31] خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 23 أفريل إلى الشعب التونسيّ بمناسبة دخول شهر رمضان.

[32] خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 23 ماي إلى الشعب التونسيّ بمناسبة عيد الفطر.

[33] حوار رئيس الجمهوريّة يوم 16 أفريل مع صاحب وحدة صناعة الملابس الواقية في القيروان.

[34] خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 23 ماي إلى الشعب التونسيّ بمناسبة عيد الفطر.

[35] خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 23 ماي إلى الشعب التونسيّ بمناسبة عيد الفطر.

الكورونا، بل تبرز أساسا في الاستعارات العسكريّة التي أطلقها على الأطبّاء في مجلس الأمن القوميّ حين نعتهم بقوات الطلائع البيضاء "وأتوجّه [بالشكر] أيضا في هده المناسبة لقوات الطلائع البيضاء من الإطار الطبيّ وشبه الطبيّ والإداريّين"[36]. ثم كرّرها بعد أسبوع في خطاب التهنئة بشهر رمضان "لابدّ من التوجّه مجددا بأسمى آيات الشكر للجميع، لقوات الطلائع البيضاء"[37].

ولا تقتصر عسكرة الخطاب على نعت الأطباء والجهاز شبه الطبيّ بقوات الطلائع، بل تتحوّل الكمامات إلى سلاح ويتحوّل تصنيعها في ظروف الأزمة إلى شكل من أشكال دعم المجهود الحربيّ "هي سومها بـ300 مليم وتولي بدينارين فين المجهود الحربيّ؟ والتطوّع كما تطوّع العمال هو مجهود حربي، ليا عطى ربّي موش باش يلوج على الربح، يلوج باش يساهم في المجهود الحربيّ الكمامة سلاح في مواجهة الفيروس أو الجائحة"[38]. ويصبح المحتكرون مجرمي حرب في نظر رئيس الجمهوريّة.

على سبيل الخاتمة:

حاولنا في هذه الورقة أن ندرس خطاب رئيس الجمهوريّة قيس سعيّد حول الكورونا، وسبل التصدّي لها صحّيا واجتماعيّا واقتصاديّا، من خلال تفكيك سياقات خطابه ومرتكزاته ثم نظرنا في استعاراته الناظمة والتي من خلالها حاولنا اكتشاف طبيعة المقاربات الاجتماعيّة والسياسيّة التي يتبناها الرئيس. وانتهينا إلى أن الكورونا بقدر ما كانت غاية الخطاب في كثير من الأحيان يستهدفها الرئيس بالإجراءات والقرارات، فأنّها أيضا كانت في كثير من الأحيان مناسبة لطرح تمثلاته السياسية وقناعاته الاجتماعيّة في إدارة أزمة الخيارات السياسيّة في تونس على جميع الأصعدة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وكانت مناسبة لإطلاق تصريحات قويّة ضد خصومه المفترضين، ومن ثمة تغدو السلطة صانعة للخطاب والخطاب بدوره منتجا للسلطة[39]. حتى أن هاجس الأزمة السياسيّة يطغى أحيانا على تفكير الرئيس حتى يغطي الهاجس الصحيّ، فتعترضنا في خطاباته المرتجلة زلات لسان فرويدية يسميها النحاة **بدل الغلط والنسيان**، حين يقول في مستهلّ كلمته في افتتاح اجتماع مجلس الأمن القوميّ يوم 20 مارس "نعتزّ باستقلالنا وبحريّة قرارنا في ظلّ أوضاع سياس-صحيّة وسياسيّة أيضا"[40]. فقد كان ينوي الحديث عن الأوضاع الصحيّة لكن الأوضاع السياسيّة فرضت نفسها على القول فارتبك ثم صحّحها.

[36] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 17 أفريل في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

[37] خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 23 أفريل إلى الشعب التونسيّ بمناسبة دخول شهر رمضان.

[38] حوار رئيس الجمهوريّة يوم 16 أفريل مع صاحب وحدة صناعة الملابس الواقية في القيروان.

[39] Foucault Michel, La volonté de savoir, Gallimard, Paris, 1976, P. 133.

[40] كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

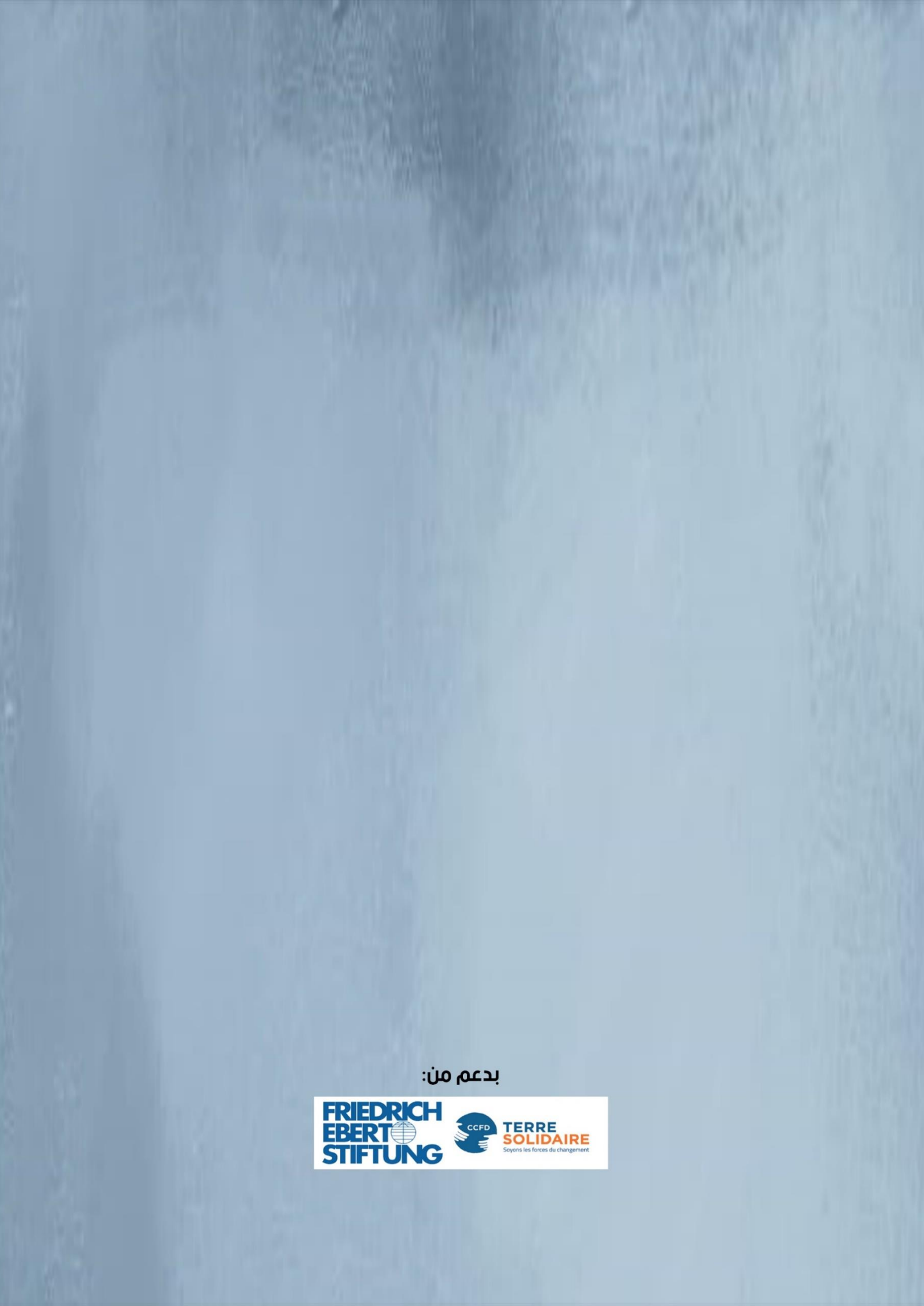

بدعم من:

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

CCFD TERRE SOLIDAIRE
Soyons les forces du changement